خصائص التمايز الصرفي في النص القرآني
دراسة اسلوبية

الباحث: حسين إدريس موسى
المديرية العامة لتربية نينوى

أ.د.عقيل عبد الزهرة مبدر الخاقاني
أستاذ البلاغة والنقد في كلية الآداب جامعة الكوفة

Aspects of morphological Distinction in the Qur'anic Discourse. A Stylistic Study

Researcher: Hussein Idris Musa
Prof. Dr. Aqeel Abdulzahra Mubdir Alkhaqani
University of Kufa - Faculty of Arts

الخلاصة :

يدور البحث في دلالة الوحدات الصرفية وبيان صيغ الأبنية وأحوالها في النص القرآني دراسة اسلوبية بما يُميّز النص القرأني عن منظوم القول ومنثوره؛ فلا شك أن لكل صيغة صرفية وظيفة تتميز بها عن الأخرى، من حيث الدلالة؛ لإنَّ التنوع في استعمال الأوزان الصرفيَّة للجذر الواحد في القرآن الكريم، برغم تقارب السِّياق والمعنى لا يدع مجالا للشَّك في أنَّ التنوع مقصود ولغاية شريفة ونكتة لطيفة.

ويقدِّم البحث أدلة عقلية ونقلية في تضعيف الرأي القائل بعبثية تعدد بعض الصيغ الصرفية في اللغة العربية بشكل عام وفي القرآن بشكل خاص؛ فإنَّنا وقفنا على نماذج من تلك الصيغ التي ظنَّ بعضهم أنَّها من التعدد الذي لا يرجى منه فائدة دلالية.

Abstract:

The research revolves around the significance of the morphological units and the statement of the formulas of buildings and their conditions in the Qur'anic text, a stylistic study in what distinguishes the Qur'anic text from the system of saying and its prose. There is no doubt that each morphological formula has a function that distinguishes it from the other, in terms of significance. Because the diversity in the use of morphological weights for the single root in the Holy Qur'an, despite the convergence of the context and meaning leaves no room for doubt that the diversity is intended for an honorable purpose and a nice joke.

The research presents mental and textual evidence in weakening the opinion of the absurdity of the multiplicity of some morphological forms in the Arabic language in general and in the Qur'an in particular. We came across examples of those formulas, which some of them thought were of the plurality from which no semantic benefit was hoped.

الكلمات المفتاحية:
خصائص التمايز الصرفيّ- دلالة الهيأة الصرفية- أثر الصرف في القرآن- وظيفة الصرف في القرآن- تبادل الصيغ- أثر القرآن في الصرف

Key words:
Characteristics of morphological differentiation - the significance of the morphological form - the effect of morphology in the Qur'an - the function of morphology in the Qur'an - the exchange of formulas - the effect of the Qur'an on morphology

المقدمة

الحَمدُ لِلهِ مِنْ ابْتَداءِ الخَلْقِ الى انْتَهائِهِ، والصَّلَاةُ والسَّلَامُ عَلَى أشْرَفِ أنْبيائِهِ، وعَلَى الِهِ الطَيِّبِيْنَ الطَّاهِرِيْنَ اوْلِيائِهِ.

البحث الصرفيُّ في القرآن الكريم هو من أوسع المباحث؛ لما فيه من مسائل كثيرة ومطوَّلة، ولا يمكن الوقوف على كل هذه المسائل وبكل تفاصيلها الدقيقة في هذه العجالة ومستوى البحث؛ لذا سوف نقتصر على مسائل ثلاث، مع بسْط القول فيها بشيء من الايجاز المناسب للمقام، ومن هذه القضايا الصرفيَّة: معاني أبنية الزيادة، والمشتقات، والإفراد والتثنية والجمع؛ لأجل الوقوف على الدلالة الصرفيّة للهيآت المختلفة، وتضعيف

الرأي القائل بعبثية تعدد بعض الصيغ الصرفية في اللغة العربية بشكل عام وفي القرآن بشكل خاص؛ فإنَّنا وقفنا على نماذج من تلك الصيغ التي ظنَّ بعضهم أنَّها من التعدد الذي لا يرجى منه فائدة دلالية.

واقتضى البحث أنْ يكون من تمهيد ومباحث ثلاثة، أمَّا التمهيد فكان في أثر الصرف في النص القرآني وخلاف ذلك صحيح، أمَّا المباحث الثلاثة فتوزعت كالآتي: الزيادة والحذف في المبنى، الفعل واسم الفاعل، والإفراد والتثنية والجمع.

وشمل المبحث الأول الصيغيتين الصرفيَّتين (فعل) و(أفعل)، وفيه تناولنا الفعلين (مَّد) و (أمد)، والمبحث الثاني جاء في الصيغتين الصرفيَّتين (يخلق، خالق)، و(آمنوا، مؤمن)، و(بسط، باسط) أما المبحث الثالث فقامت على إضافة الجمع إلى ضمير المثنى، وإضافة المثنى إلى ضمير الجمع، واستعمال المفرد للهداية والجمع للخير والشر.

وبما أنَّ الدراسة اسلوبية (التمايز الصرفيّ في النص القرآني دراسة أسلوبية) فقد اعتمدنا في تحليل النصوص الأمثلة التي أغلبها فيما تميَّز به النص القرآني من منظوم القول العربي ومنثوره.

ورجَّحنا في توجيه معاني الآيات المباركات القراءة الجديدة والرؤى والأفكار الحديثة على الآراء والتوجيهات القديمة إلَّا ما كان منها منسجما مع الأفكار الحديثة مع مناقشة تلك الأراء والتوجيهات القديمة وموازنتها مع التوجيهات الحديثة؛ لذلك تنوعت المصادر والمراجع المعتمدة في إنجاز هذا البحث بين القديم والحديث على أنَّ النَّص القرآني يجب أنْ يُفهم بما يتناسب مع طبيعة كلِّ عصر.

أما مصادر البحث ومراجعه فقد تنوعت بين كتب التفسير واللغة، ولاسيَّما تلك التي عُنيَتْ بأساليب القرآن الكريم وطائف تعبيره، كتفسير الكشاف

للزمخشري، والتحرير والتنوير لابن عاشور، روح المعاني للآلوسي، ومن الثاني شرح المفصّل للزمخشري.

تمهيد: أثر الصرف في القرآن وخلاف ذلك صحيح

تميَّز القرآن الكريم باستعمال الاوزان الصرفيَّة بدقة واضعا كلَّ وزن موضعه الصحيح؛ لما يقتضيه المعنى من الوزن الصرفيّ، فلم يستعمل القرآن الكريم وزنا دون آخر إلَّا لداعٍ بلاغيّ اعجازيّ قلَّ نظيره.

إنَّ الجذور السواكن، نحو (ك س ب) تدل على المعاني المطلقة، ولا تتقيَّد هذه المعاني في نحو دقيق إلَّا عبر القوالب الصرفيَّة التي توضع فيها هذه الجذور، فعلى سبيل المثال الجذور السواكن (ك س ب) تدل على الحصول على الشيء ولكن بوضعها في قوالب صرفيَّة معينة ستدل على معاني (الحصول) الدقيقة، (كسْب، كسَب، اكتسب، كاسب، ...).

إنّ التنوع في استعمال الأوزان الصرفيَّة للجذر الواحد في القرآن الكريم، برغم تقارب السِّياق والمعنى لا يدع مجالا للشَّك في أنَّ التنوع مقصود ولغاية شريفة ونكتة لطيفة، فعلى سبيل المثال في آية واحدة يعدل القرآن الكريم من الفعل الماضي إلى اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾[1]، إذ عدل عن (بسط) إلى (باسط)، ولا يعقل أن يكون هذا الانتقال من دون فائدة او غرض. وكذا الحال عندما ينتقل من بنية مجردة إلى أخرى مزيدة ومن الجذر اللغوي نفسه فلا يعقل أنْ يكون عبثا، نحو استعمال الفعل (مدَّ) في آية و(أمد) في أخرى وكلاهما بمعنى الزيادة، وهكذا.

المبحث الأول: الزيادة والحذف في المبنى:

(فعل) و(أفعل)

إنّ زيادة الهمزة أول الفعل الثلاثي تأتي لعدة معانٍ منها التعدية، وهو الأكثر، نحو: (أجلسته) و(أمكثته). وللتعريض للشيء، نحو: (أقتلته وأبعته)، وللصيرورة، نحو: (أغد البعير) إذا صار ذا غدة[٢].

وثمَّة من يرى أنَّ (فعل) و(أفعل) يردان بمعنى واحد إذا لم يجدوا في الزيادة أحد هذه المعاني التي أوردتها المصنفات النحوية، على أنَّ (فعل) و(أفعل) اشتركا في جميع المعاني الواردة في التفريق بينهما فينتهي الباحث إلى نتيجة مفادها أنَّ القرآن استعمل كليهما بمعنى واحد.

والحقيقة تأبى بأنَّ يستعمل القرآن هذا التنوع من دون غاية أو غرض منشود منه وإلا كان نوعًا من العبث أو الحشو من القرآن أولاً، وممن تواضع على الوزن الصرفي ثانيا، فلو كان (فعل) يقوم مقام (أفعل) فلمَ وجد هذا الوزن الأخير أصلا؟ فاللغة حاجة نفسية أولاً وقبل كلِّ شيء للتعبير عن مشاعرها ومعانيها، فعلى سبيل المثال تجد أحيانا أمامك العشرات من المفردات والأوزان الصرفيَّة إلَّا أنك تجد نفسك عاجزا عن اختيار مفردة من بينها لتعبِّر عن دقَّة المعنى الذي يختلج في صدرك.

وهذا إنْ دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على أنَّ التنوع في الوزن الصرفي لا يكون عبثا، وإنَّما ابتغاء تحديد المعنى الدقيق من المعنى المطلق الذي تفيده الجذور السواكن، ومن هذه المعاني الدقيقة التي يؤديها التنوع الصرفي:

أ. (مد، أمد)

مَدَّ: فعل متعد على وزن (فعل) ومعناه الزيادة، تقول (مدَّ الشيء) أي زاده، فالهمزة في (أمد) لا تفيد التعدية؛ لأنَّ الفعل متعدٍ قبل زيادتها، ولعلَّ هذا الذي قاد بعض الباحثين إلى عدم التفريق بين الصيغتين في الاستعمال القرآني. ولكنّا إذا أمعنا النظر قليلا في استعمال الصيغتين في القرآن الكريم نجد أنَّ معنى الزيادة في (فعل) تختص في ذات المفعول[٣]؛ أي أنَّ الزيادة تكون ذاتية أو من الممدود[٤]، نحو قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٥]، فالطغيان موجود في ذاتهم، وكلُّ ما في الأمر أنَّ هذا الطغيان زاد ذاتيا، وليس الله سبحانه وتعالى هو من غرز فيهم هذا الطغيان، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾[٦]، فالزيادة في البحر ذاتية على شيء موجود بالأصل وليس معدوما قبل الزيادة، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾[٧]، فالأرض موجودة وحصلت فيها الزيادة ذاتية، وتدبر أيضا قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾[٨]، فالزيادة هنا جاءت على موجود بالأصل.

أما الفعل الرباعي (أمد) فالزيادة فيه خارجية، بمعنى آخر أنَّ الزيادة والإيجاد تأتيان من الخارج، ولكن الإيجاد يسبق الزيادة عقلا، بمعنى أنَّ الزيادة لا تكون على ذات موجودة بالأصل قبل الزيادة، نحو قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾[٩]، فالإمداد بالملائكة لم تأتِ على عديد من الملائكة كانوا موجودين قبل الزيادة، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ إِنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾[١٠]، فإنّ الإمداد هنا لم يكن على شيء موجود سابقا، وإنَّما الإيجاد والزيادة لله سبحانه وتعالى، فالأموال والبنون سببُ ايجادهم هو الله سبحانه والزيادة جاءت على ما أوجده الله سبحانه وتعالى، بخلاف الطغيان الذي هو من عند

أنفسهم، فتأمل أيَّ بلاغة وفصاحة يتحلى بهما القرآن الكريم في دقَّة استعمال المفردة والوزن الصرفي المناسب له ليؤدي وظيفته الصرفية على أتم وجه.

لا يمكن إغفال حقيقة أخرى وهي أنَّ الفعل الثلاثي أُستعمل في القرآن للخير والشر بفارق في المعنى على نحو تم بيانه، ولكن الفعل الرباعي أُستعمل في خصوص الخير أو المحمود: في الرزق والعمر والأولاد وغيرها من الموضوعات، ونُقل ذلك عن أبي علي الفارسي في كتاب (الحجة) ، ونقل ابن عطيَّة عن يونس بن حبيب، قوله ((يقال مد في الشر وأمد في الخير))[١١].

ويعقب ابن عاشور على هذه الآية الكريمة داحضًا قول من ساوى بين اللفظتين في المعنى بقوله: ((وَهَذَا مِنْ دَقَائِقِ اسْتِعْمَالِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَلَا يُقَالُ أَنَّ دَعْوَى اخْتِصَاصِ بَعْضِ الِاسْتِعْمَالَاتِ بِبَعْضِ الْمَعَانِي هِيَ دَعْوَى اشْتِرَاكٍ أو دَعْوَى مَجَازٍ وَكِلَاهُمَا خِلَافُ الْأَصْلِ كَمَا أَوْرَدَ عَبْدُ الْحَكِيمِ لِأَنَّ ذَلِكَ التَّخْصِيصَ كَمَا عَلِمْتَ اصْطِلَاحٌ فِي الِاسْتِعْمَالِ لَا تَعَدُّدُ وَضْعٍ وَلَا اسْتِعْمَالٌ فِي غَيْرِ الْمَعْنَى الْمَوْضُوعِ لَهُ)) [١٢].

ب. قسط وأقسط

الفعل (قَسَطَ) ثلاثي يدلُّ على ما يقابل العدل، واسم الفاعل منه (قاسط)، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا {١٤} وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾،[١٣] فالقاسطون هم حطب جهنم، أمَّا الفعل (أقسط) فإنَّ همزته همزة سلب[١٤]؛ أي أنَّها تقلب المعنى إلى الضد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾[١٥] ، واسم الفاعل منه (مُقسط)، وورد الفعل الرباعي (أقسط) واسم الفاعل منه

في آية واحدة في قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(١٦) .

المبحث الثاني: الفعل واسم الفاعل

١. (يخلق) و(خالق)

لا شك في أنَّ لكلِّ صيغة صرفيَّة وظيفة تتميَّز بها من الأخرى، من حيث الدلالة، فعلى سبيل المثال لو تدبرنا قوله تعالى: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾،(١٧) وقوله: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ﴾(١٨)، وتأملنا فرق الدلالة بين الصيغتين: (أخلق) في الآية الواردة أولًا، وهو فعل مضارع يدلُّ على الحال والاستمرار، و (خالق) في الآية الواردة ثانيًا، وهو اسم فاعل يدلُّ على الحدوث والتجدد والاستمرار، وهو أكثر استمرارية من الفعل المضارع، واذا ما دققنا النظر في سبب في استعمال الفعل المضارع في الأولى نجد أنَّ الآية تتحدث عن عيسى والكلام على لسانه، فعبر بالفعل المضارع حتَّى لا يدلُّ على الثبوت والاستمرار، أي لا يكون الخلق صفة له، بمعنى أنه لا يخلق في أيِّ وقت شاء وكيفما شاء، لأنَّه لا يستطيع ذلك، فهو يخلق مرة أو بضع مرات، وذلك بعد إذن الله له، أمَّا صيغة اسم الفاعل في الآية الثانية (خالق)، فسياق الآية يتحدث عن خلق الله عزَّوجلَّ والمتحدث هو جلَّ شأنه، فجاء بصيغة اسم الفاعل ليدلَّ على الثبوت على نحو الصفة، أي أنَّه عزَّ وجلَّ يخلق باستمرار من دون انقطاع، أو أنْ يمنعه مانع من ذلك.

وثمَّة قرائن أخرى تتضافر في السِّياق لتحقيق هذا المعنى من المستويات الأخرى غير الصرفيَّة، الآية الأولى فيها (لام) الاختصاص والملك (لكم) وهو ما يدلُّ على تقييد الفعل المضارع بقيدين الأول زمانيّ والثاني مكانيّ؛ فقوله (لكم) يحدد لمن يخلق عيسى ، فهو يخلق لقومه فقط لا لكل الأقوام وعبر الازمان، فهو وإن كان لمّا يزل على قيد الحياة بعد أنْ رفعه الله اليه إلَّا أنَّه لا يستطيع الخلق الآن، وفيه قيد مكاني أيضًا؛ لأنَّ هؤلاء الناس محكمون بقيد الزمان والمكان وبذلك يكون خلق عيسى كذلك محكوما بالقيد المكاني والزماني. أمّا الآية الثانية فخلت عن أي قيد زمانيّ أو مكانيّ؛ لأنَّ الخالق هو الله جلَّ جلاله، وهو الذي أيَّنَ الأين فلا أين له، وخلق الزمان فلا أول لأوليَّته ولا آخر لآخريّته.

وإذا تأملنا تناسق الكلمات وترتيبها ودلالتها من جهة أخرى نجده يرسم المعنى نفسه، فقوله : (كهيئة الطير)؛ إشارة إلى أنه لا يخلق طيرًا، وإنَّما يكون طيرًا بإذن الله، وشتَّان ما بين أنْ تخلق طيرا أو على هيأة الطير، فالأول قائم على غير مثال سابق وهو الابداع أو ما يُسمى بالعلم الفعلي في علم المنطق والثاني انفعالي تأثر بمثال سابق.

ثم إذا أمعنا النظر مرة أخرى إلى أبعد من ذلك ودققنا في ترتيب الآية مرة أخرى نجد الأولى يستند فيها عيسى في الخلق إلى (الطين) بقوله (أخلق لكم من الطين)، ثمَّ يخلق منه كهيأة الطير فهو لم يأتِ بمادته الأساس من عنده بل من الطين، وهو مخلوق من مخلوقات الله عزَّ وجلَّ، فعيسى مادته الأساس في الخلق من الله.

بينما في الآية الثانية يقول الله عزَّ وجلَّ (خالق بشرا)، وهذا البشر هو من (طين) فهو يخلق من العدم لا بالاستناد إلى شيء آخر؛ ولذلك أخر (طين) ونكره بينما في الأولى عرفه وقدّمه؛ لأنَّ الطين معروف ومعهود لدى الناس

قبل أنْ يخلق عيسى ﷺ وسابق لوجوده أما لدى الله سبحانه غير معهود لأنَّه هو من أوجده.

٢. (آمنوا) و(المُؤمنون)

عطفا على ما تقدم يستعمل القرآن الكريم الفعل (آمنوا) في المؤمن والكافر والمنافق؛ أي كلّ من تظاهر بالإسلام والإيمان وإنْ لم يكن من جملتهم، نحو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[١٩] ، فلو كان هؤلاء مؤمنون فلم يأمرهم بالإيمان؟ وقيل في تأويله كثير من الأوجه،[٢٠] وما نراه منها هو أنَّ هؤلاء الذين آمنوا إنَّما آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم؛ فأمرهم أن يؤمنوا بقلوبهم حملا على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾[٢١]، فهذه الآية صريحة بكفرهم وأنَّهم منافقون يُظهرون خلاف ما يُبطون[٢٢].

وهناك آية آخرى تعاضدد هذا المعنى الذي أرتأيناه من أنْ يكون المعنيين هم المنافقون والكفار، وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[٢٣]، فهؤلاء الذين رفعوا أصواتهم فوق صوت النبيّ خاطبهم الله بالفعل (آمنوا) إلَّا أنَّه ختم الآية بقوله: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ ولا يحبط إلّا عمل الكافر؛ لقوله جلَّ وعلا: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٢٤].

أمَّا (المؤمنون) فهم من ثبت عليهم الإيمان ويتحلون بصفات تميّزهم عن غيرهم ومن هذه الصفات قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٢٥]، وفي آية آخرى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى

أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾[٢٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[٢٧]. فهذه بعض صفاتهم: (قلوبهم توجل من ذكر الله) و(يستأذنون من رسول الله) و(لم يرتابوا في إيمانهم) و(جاهدوا باموالهم وأنفسهم في سبيل الله) و(هم صادقون)، ولا نريد الوقوف على كلّ صفاتهم في القرآن؛ لأن ذلك يطول كثيرا.

٣. بسط وباسط

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾[٢٨].

المعنى العام لهذه الآية هو ابتعاد هابيل عن قتل أخيه قابيل مع علمه باقتراب قابيل من قتله، فيرسم القرآن هذا المعنى على كل المستويات الجزئية خدمة للمعنى العام.

يستعمل القرآن الكريم الفعل الماضي (بسط) للقتل الذي لم يقع بعد، لتحقق وقوعه أو لقرب وقوعه من قابيل تجاه أخيه، وهذا الأمر دأب عليه القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[٢٩].

ويستعمل القرآن الكريم مع هابيل اسم الفاعل المنوَّن (باسط) الدال على الاستقبال؛ لعدم وقوع القتل منه وابتعاده عنه. ولأن الفعل متحقق الوقوع من قابيل وقريب منه قرب بين الفعل (بسط) والضمير المتكلم العائد إلى هابيل بقوله: ﴿بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ﴾، وباعد بين (باسط) والضمير العائد إلى قابيل، بقوله: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ﴾، فهذا الإبعاد بين الضمير والفعل

يدلُّ على بعد هابيل ﷺ عن قتل أخيه، وليس التفريق بين الفعل والضمير أو التقريب بينهما اعتباطا، بل الأمر معهود في القرآن الكريم، ففي آية أخرى يقول الحقُّ سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾[٣٠]، فقرَّب بين البسط والضمير العائد إلى المؤمنين في معنى التقريب، وباعد بين الكف والضمير العائد إلى المؤمنين في معنى الإبعاد.

فضلا عن ذلك كلِّه يؤكد هابيل على ابتعاده عن قتل أخيه بنفي البسط نفيا مؤكدا بالباء الزائدة بقوله: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ﴾.

فالحقُّ سبحانه وتعالى لا يكتفي بإبعاد اليد في المعنى اللغوي فقط، بل يرسمه صورة واضحة أمام أنظارنا ليكون وقع المعنى في النفس أبلغ.

المبحث الثالث: الإفراد والتثنية والجمع

١. إضافة الجمع إلى ضمير المثنى

قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾[٣٢].

في الآية الأولى يخاطب الله عزَّ وجلَّ اثنتين من أزواج النبي ﷺ وهما عائشة وحفصة[٣٣]، ونلاحظ لفظة (القلوب)، وهي جمع، أُستعملت في الإسناد إلى المثنى؛ وهذا ما عهد عن العرب في تثنية العضو الذي في الإنسان منه واحد[٣٤]، بمعنى أنَّ أيَّ عضو مفرد في الانسان في حال التثنية يُجمع، كالقلب والرأس، فتقول: ((ما ألين قلوبكما!))، أمّا الأعضاء الزوجيَّة فلا يجوز فيها إلَّا التثنية، فتقول: ((ما أكرم يديكما!)) وليس ((ما أكرم أيديكما!)) إلَّا أنَّنا نجد القرآن قد تميَّز باستعمال الجمع في التثنية في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ

وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾، فاستعمل الجمع (الأيدي) مع أنَّ اليد ليست من الأعضاء المفردة في الجسم[٣٥].

وهذه حكمة بالغة أثارت الفضول، وأذهلت العقول، بإنزالها اليد منزلة العضو المفرد؛ ليوحي بأنَّ الحكم الإلهي في القطع يجري على يد واحدة لا على كلتيهما، فلو قال الحق سبحانه وتعالى فاقطعوا يديهما لقطعت اليمنى واليسرى؛ لذا عدل سبحانه وتعالى من التثنية إلى الجمع.

ثم لِنعد إلى الآية الكريمة: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ﴾[٣٦] والتي تناولها ابن الاثير شاهدا لحُسن تخيّر الالفاظ في القرآن الكريم، ولنسأل: إذا كان لكل انسان قلب واحد، فلم خصّ الله الرجال بالذكر دون النساء، أو لِم لم يذكر الانسان بدل الرجل؟

هنا يذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ للآية سببَ نزولٍ، وهو إدّعاء بعض العرب أنَّ رجلا كان له قلبان لشدة حفظه، واختلفوا في هذا الرجل من هو؟ وذهب بعضهم إلى أنَّ (الرجل) في الآية الكريمة قصد منه الإنسان، نحو قول الزمخشريّ: ((والتنكير في رجل، وإدخال مِن الاستغراقية على قلبين تأكيدان لما قصد من المعنى، كأنه قال: ما جعل الله لأمة الرجال ولا لواحد منهم قلبين البتة في جوفه)) [٣٧]، إلى غير ذلك من التوجيهات والتأويلات، ولكن إذا أطلنا بفكرنا حول الآية الكريمة نجدها لا تتحدث عن امتلاك القلب حتَّى يعم الجنسين بالذكر، وإنَّما تتحدث عن وجود القلب داخل الجوف وهذا الامر مختلف، فلكل رجل قلب واحد وكذلك المرأة، بينما في جوف الرجل قلب واحد وهو قلبه، أمّا المرأة فقد يوجد في جوفها أكثر من قلب عندما تكون حاملا، فتأمل هذه الدقة في التعبير.

٢. إضافة المثنى إلى ضمير الجمع

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٣٨]، أضاف الحقُّ جلَّ وعلا لفظة (أخوي) إلى ضمير الجمع (كم)، وهنا يقول الزمخشري: ((فإن قلت: فلم خص الاثنان بالذكر دون الجمع؟ قلت: لأنَّ أقلَّ من يقع بينهم الشقاق اثنان، فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم، لأنَّ الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين)).[٣٩]

إذا عدنا إلى الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾ نجدها تتحدَّث عن مجموعتين من المؤمنين فناسب التثنية جمع المؤمنين، إذ لو كان سياق الآية (اخوانكم) لكانت فيه إشارة إلى وقوع الخلاف بين المؤمنين فردا فردا، وحينها لا تكون جهة مستقلة وبعيدة عن هذا الصراع والخلاف، وعندها لا يكون معنى لقوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾.

٣. استعمال المفرد للهداية والجمع للخير والشر

أ. (السبيل والسبل) (الصرط) (النجم، النجوم) (النور، الظلمات)

عندما ترد لفظة (سبيل) مفردة فإنَّها تكون في سياق الهداية، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[٤٠]، يجعل الحقُّ سبحانه وتعالى للهداية سبيلا واحدا لا غير، فيقول: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، فأفرد السبيل وأضافه اليه سبحانه وتعالى، وكذلك انظر إلى كلمة الصراط فإنَّها جاءت مفردة ومضافة إلى الحقّ سبحانه وتعالى في الآية نفسها؛ لبيان ذات الغرض: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾، ولبيان أنَّ الحقَّ سبحانه واحد والطريق اليه واحد أيضا.

ومن الملاحظ أنّ القرآن الكريم لم يستعمل (الصراط) إلَّا مفردا، وخصَّص استعمالها بالهداية فقط؛ لأنَّ للهداية -كما قلنا- طريقا واحدا، وحتى عندما استعمل القرآن الكريم لفظ الهداية للجحيم قرنها بالصراط بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾[٤١]. وكذلك أفرد النجم بقوله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾[٤٢]؛ لأنَّها جاءت في سياق الهداية، ولم يفرد العلامات لأنَّ للهداية علامات كثيرة ولكن لا يمكن للإنسان إلَّا أنْ يسلك طريقا واحدا، بينما للضلالة سبل كثيرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾، بل وحتى للخير سبل كثيرة أيضا؛ لقوله جل وعلا: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[٤٣]. ولاحظ كلمة (النور) فلأنها جاءت في سياق الهداية أفردت، بينما (الظلمات) جاءت جمعا؛ إذ قصد بها الضلالة.

الخاتمة

وفي الختام نوجز أهم النتائج التي انتهينا إليها في هذه الدراسة الموسومة بـ (خصائص التمايز الصرفيّ في النص القرآني دراسة صرفيَّة) على النحو الآتي:

١. إنَّ تمايز النَّص القرآني واضح وجليّ في استعمال الهيآت المفردة المناسبة للمعنى، ففي آية واحدة يستعمل القرآن الكريم أكثر من هيأة وللجذر اللغوي نفسه، وما ذلك إلَّا لخدمةِ المعنى والسياق الذي فيه، فضلا عن كثير من الهيآت المختلفة في الآيات المتقاربة في السياق.
٢. وانتهينا إلى أن ليس في النّصِّ القرآني هيئات مختلفة بمعنى واحد، ومنه قولهم: (مد، وأمد) يردان بمعنى واحد، وبيّنا سبب وقوعهم في هذه

المغالطة وهو أنَّ اللغويين يفرقون هيأة (أفعل) عن (فعل) بمعان سبعة والهيأتان اتفقتا في القرآن بجميع هذه المعاني ولم يختلفا، وهذا الأمر دعاهم إلى القول: إنَّهما يردان بمعنى واحد، إلَّا أنَّنا بينَّا الفرق الدقيق بين (مدَّ، أمد).

٣. إنّ القرآن الكريم يستعمل الإفراد والتثنية والجمع بدقة وعناية شديدتين، ومثّلنا لذلك بأمثلة عديدة منها (جمع القلب) في خطاب التثنية، ونفي القلبين من الرجل من دون المرأة، وأنَّ لفظ (الرجل) لا يراد منه الرجل والمرأة، كما ذهب إليه الزمخشري وغيره، وبينّا وجه إمكان وجود قلبين أو أكثر في جوف المرأة.

الهوامش

(١) سورة المائدة: ٢٨.

(٢) ينظر: شرح المفصل، لابن يعيش: ٤ /٤٣٨.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٢٩٥/١.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية: ٩٧/١، و٢/ ٤٩٣.

(٥) سورة البقرة: ١٥.

(٦) سورة لقمان: ٢٧.

(٧) سورة الرعد: ٣.

(٨) سورة الأعراف: ٢٠٢.

(٩) سورة آل عمران: ١٢٤.

(١٠) سورة المؤمنون: ٥٥.

(١١) تفسير ابن عطية المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية: ١/ ٩٧.

(١٢) التحرير والتنوير: ٢٩٥/١

(١٣) سورة الجنّ: ١٤-١٥.

(١٤) ينظر: لسان العرب، لان منظور: ٣٧٧/٧.
(١٥) سورة النساء: ٣.
(١٦) سورة الممتحمة: ٥.
(١٧) سورة آل عمران: ٤٩.
(١٨) سورة ص: ٧١.
(١٩) سورة النساء: ١٣٦.
(٢٠) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٢٩/٥-٢٣٠
(٢١) سورة المائدة: ٤١.
(٢٢) ينظر: تظام المجوعات الكامل، عالم سبيط النيلي: ٧٢-٧٦.
(٢٣) سورة الحجرات: ٢.
(٢٤) سورة المائدة: ٥.
(٢٥) سورة الأنفال: ٢.
(٢٦) سورة النور: ٦٢.
(٢٧) سورة الحجرات: ١٥.
(٢٨) سورة المائدة: ٢٨.
(٢٩) سورة النحل: ١.
(٣٠) سورة المائدة: ١١.
(٣١) سورة التحريم: ٤.
(٣٢) سورة المائدة: ٣٨.
(٣٣) ينظر: روح المعاني، للآلوسي: ٣٤٧/١٤، وتفاسير أخرى كثيرة لا داعي لذكرها.
(٣٤) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ١٧٢/٢-١٧٣ و: المحرر الوجيز: ١٨٩/٢، و: النحو الوافي، عباس حسن، هامش: ١٦١/١.
(٣٥) ينظر: م.ن: ١٦١/١.
(٣٦) سورة الأحزاب: ٤.
(٣٧) الكشاف: ٥٢١/٣.

(٣٨) سورة الحجرات: ١٠.
(٣٩) تفسير الكشاف، ٣٦٦/٤.
(٤٠) سورة الأنعام: ٥٣.
(٤١) سورة الصافات: ٢٣.
(٤٢) سورة النحل: ١٦.
(٤٣) سورة المائدة: ١٦.

مكتبة البحث

القرآن الكريم

١) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ). - تونس : الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤ هـ
٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت ١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤١٥ هـ، الطبعة: الأولى.
٣) شرح المفصل للزمخشري، يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء، موفق الدين الأسدي الموصلي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع (المتوفى: ٦٤٣هـ) قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب، بيروت - لبنان : دار الكتب العلمية، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، الطبعة: الأولى.

٤) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ)، بيروت -لبنان : دار الكتاب العربي، ١٤٠٧ هـ، الطبعة: الثالثة.

٥) لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت ٧١١هـ)، بيروت - لبنان، الناشر: دار صادر، ١٤١٤ هـ، الطبعة: الثالثة.

٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت ٥٤٢هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢ هـ، الطبعة: الأولى.

٧) معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ) تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، بيروت : عالم الكتب، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، الطبعة: الأولى.

٨) النحو الوافي، عباس حسن (ت ١٣٩٨هـ)، الطبعة: الخامسة عشرة.

٩) تظام المجوعات الكامل، عالم سبيط النيلي، بيروت - لبنان : دار المحجة البيضاء، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م. - الطبعة: الأولى.